دراسة تاريخية

لتطور مفهوم الدولة فى جزيرة العرب فى العصر الحديث

للدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية

مدرس التاريخ الحديث — كلية اللغة العربية بالرياض

عندما كان (مركز الثقل الإسلامى) فى جزيرة العرب فى العصر الوسيط، كانت أرضها تضم مجتمعاً إسلامياً واحداً ، ظل هذا المجتمع ينعم فى ظل حكم دولة إسلامية منظمة . وبعد أن انتقل مركز الحكم فى الجزيرة العربية إلى الشام ، بعد تسلم الدولة الأموية زمام المبادرة السياسية ، ثم انتقال مركز الحكم إلى العراق ، بعد تسلم الدولة العباسية زمام المبادرة السياسية ، عندها تقلصت مع هذا الانتقال قبضة السلطة المركزية على الجزيرة العربية ، حيث البعد المسافى أولا . وازدياد موجات الغزو الخارجى ضد السلطة المركزية ثانياً، وتنازع العناصر والطوائف والقوى على الحكومة ثالثاً ، كل هذا أدى إلى رجعة فى الجزيرة العربية ، كانت نتيجة لشبه فراغ سياسى حدث فيها ، أرجع مركز القبيلة كحكومة ورئيسها كسلطة ، تمركزت تلك القوة المتجددعهدها فى إقليم من أقاليم الجزيرة المتعددة ، وأحياناً اجتازته ، ساعدنى فى بلورته أسلوب الحكم العثمانى اللامركزى فى البلاد ، وعدم استقرار السلطات المحلية هناك .

مفهوم الدولة فى المجتمع القبلى فى جزيرة العرب :

لم يكن مفهوم الدولة فى المجتمعات القبلية قبل عهد الدولة الحديثة فى جزيرة العرب ليتعدى كونها تتمثل فى سيادة القبيلة كحكومة ، وفى الشيخ ومجلس شورى القبيلة كسلطة . ولقد كانت جميع السلطات بيد شيخ القبيلة الذى يعتبر حاكما مطلقاً يسير القبيلة ، كما يشاء على اعتباره رائدها .

ولم تكن فى هذا النظام أجهزة أو مؤسسات حكومية بالمعنى الحديث ، وإنما وجدت فى القبيلة مؤسسة إدارية واحدة تساعد الشيخ فى تسيير أمور القبيلة من حيث النواحى الاقتصادية والحربية ، وهذه المؤسسة تمثلت فى مجلس شورى القبيلة الذى يضم رؤساء العائلات فى القبيلة وأبناء وأقارب الشيخ والقضاة .

وهذا الأسلوب فى السيادة والسلطة أشبه ما يكون بروابط أفراد عائلة ما بأب العائلة المسئول عن شئونها ، فالحكم القبلى حكم عائلى بشكل أوسع لأن القبيلة تحوى مجموعة من العائلات .

وفى مثل هذا النوع من السلطة فإنه لا يتطلب وجود أجهزة إدارية أو غير إدارية على اعتبار أن أمور القبيلة وعلاقاتها بالقبائل الأخرى عبارة عن أمور بسيطة ، يمكن إدارتها وتسيير أمورها بواسطة الشيخ وهيئة استشارية قليلة العدد من بين أفراد القبيلة .

ونتيجة لمفهوم الحكم القبلى كان لا بد وأن تظهر فى الإقليم الواحد عدة سلطات سياسية وأكثر من شيخ حاكم(١) .

وفى ظل هذا المفهوم السياسى كانت قوة السلطة واتساع نفوذها تعتمد على قوة شيوخ القبائل المستمدة من قوة قبائلهم ، من حيث عددها واتساع دیرتها

وغناها الذى يقدر عادة بعدد ما تملك من جمال وماشية . هذا إلى جانب قوة شخصية الشيخ وكرمه وذكائه .

وفى مثل هذا النظام السياسى الذى كان سائداً فى جزيرة العرب كان يؤدى وبشكل طبيعى إلى الكثير من المشاكل فى المنطقة ، كالخلافات حول موارد العشب والماء ، والخلافات بين شيوخ القبائل والطامحين إلى السلطة فى هذه القبائل ، وخلافات مردها أطماع شيوخ القبائل .

تطور مفهوم الدولة فى ظل النظام القبلى :

لقد تطور مفهوم الدولة فى ظل النظام القبلى ، عندما أخذت تتحد مجموعة قبائل فى اتحادات فيدرالية يمكن تسميتها بالتحالفات القبلية ، وذلك لوجود روابط الدم وعلاقات اقتصادية مشتركة فيما بينها .

وهذا التنظيم السياسى الجديد كان قد أثر على اتساع الأجهزة السياسية والإدارية للسلطة المتحالفة ، وحلت هيئة استشارية موسعة بدلا من الهيئات الاستشارية الموجودة فى القبائل قبل اتحادها ، وشكلت سلطة موسعة تضم أكثر من شيخ، وإن أصبحت فيما بعد تخضع لشيخ قوى انتخب من بين شيوخ القبائل المتحالفة ليدير شئون الحلف .

ثم تطور مفهوم الدولة فيما بعد من مفهوم سيادة الأحلاف إلى مفهوم السيادة المشتركة التى جمعت القبائل البدوية والسكان الحضر من قرويين وسكان مدن ، وبهذا اتسع مفهوم السلطة باتساع دائرة حدودها ، وازدياد عدد رعاياها ، وتطور الحياة الاقتصادية فيها .

ولما كانت المدن والقرى مركز الاستقرار والأمن والتعليم والثقافة ، ولما كان السكان الحضر يملكون زمام الأمور الصناعية والتجارية فى حواضرهم ،

أُخذت السلطة تنتقل من يد شيوخ القبائل - وإن ظلوا أصحاب سلطة واسعة — إلى يدالأمراء فى المدنوالقرى ، وتطور هذا المفهوم عندما قبض أمير مدينة مافى المنطقة على السلطة الكلية الفعلية فيها ، إما عن طريق حروب الإخضاع ، وإما عن طريق الانضمام إليه بعد امتناع السكان وقبولهم مبدأ سيادته .

الوهابية وتطور مفهوم الدولة فى جزيرة العرب:

وبظهور الوهابية فى نجد وتبنيها سياسياً من قبل آل سعود أمراء الدرعية، ظهرت فى جزيرة العرب قوةسياسية منظمة تغير معها مفهوم الدولة واتسعت معها أجهزتهاومؤسساتها كنتيجة طبيعيةاقتضاها اتساع أمور السلطةمن حيث النواحى السياسية والإدارية والاقتصادية والقضائية .

ولقد تطورت وتغيرت نظرة السكان للدولة ، واختلفت هذه النظرة من إقليم لآخر بقدر ما للسكان فى الأقاليم من إتصال مباشر مع السلطة المنظمة نسبياً . وهذا يمكن ملاحظته وعند النجديين الذين حملوا على عاتقهم نشر لواء الوهابية كدعوة دينية ، وكحركة سياسية فى الأقاليم المتعددة من جزيرة العرب، غير إقليم نجد . وكذلك عند الحجازيين الذين تعودوا على السلطة المنظمة زمن الحكم التركى وما سبقه من حكومات إسلامية فى المنطقة على اعتبار الحجاز المركز الإسلامى الذى يحوى المدن الإسلامية المقدسة . أما سكان جنوبى نجد فظلوا بعيدين عن مفهوم السلطة المنظمة وقبولهم هذا المبدأ،وظلوا أقرب إلى قبول الحكم القبلى العشائرى البدوى ، ظلوا بطبيعتهم أقرب إلى المجتمع والنظام القبلى منه إلى النظام السياسى الحديث نسبياً .أما بالنسبة للسكان فى سواحل الجزيرة فكانوا أكثر تفهماً وتقبلا لتطور مفهوم الدولة نحو الحديث ، وذلك لما لهم من علاقة قوية مع الدولة المنظمة وذلك لاحتكاكهم السياسى والتجارى مع الدولة الأجنبية .

وعلينا أن ننوه هنا أنه بالرغم مما أحدثته كل من الوهابية والحكم التركى فى تطور مفهوم السلطة والدولة فى أقاليم جزيرة العرب ، إلا أن الأنظمة المبنية على أساس العادة والعُرف والتقاليد المتوارثة ظلت أقرب إلى الحكم القبلى ، وظلت عقلية السكان متوافقة إلى حد ما مع هذا النظام ، وإن اعتراها تغير طفيف بدأ يميل إلى تقبل التجديد والإصلاح ، ليس فى مفهوم السلطة فقط بل وفى مفهوم التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التى بدأت تتغير وتتحول تدريجياً من وضعها القبلى إلى أوضاع متطورة أميل إلى الاتجاه الحديث والحياة العصرية . ولقد وضحت معالم هذا الانفتاح التدريجى بعد توحيد معظم أقاليم الجزيرة العربية فى دولة واحدة زمن الملك عبد العزيز آل سعود فى السنوت الأولى من الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادى ، حيث بداية عهد الدولة المنظمة نسبياً ، وبداية عهد الانفتاح على الخارج ، وبداية عهد من الإصلاحات والتجديد بدأت تدخل الجزيرة العربية .

تطور مفهوم الدولة بعد توحيد الأقاليم السعودية :

بعد انقضاء عهد توطيد دعائم السلطة السعودية عن طريق الحرب التى خاضها ابن سعود مع جيرانه حكام جبل شمر والحجاز ومنطقة عسير واليمن، تفرغ بعدها إلى توحيد أقاليم دولته فى وحدة سياسية كانت الأولى من نوعها فى الجزيرة العربية[٢] .

لقد انتقل بهذا مفهوم السيادة والسلطة وبالتالى مفهوم الدولة كوحدة سياسية من حالة النظام القبلى العشائرى إلى حالة النظام السياسى الحديث المتوافق مع تطور الأفكار والمفاهيم السياسية المعاصرة . وانتقلت البلاد من وضع فيه تعددت السلطات الحاكمة ، إلى وضع تجمعت وتركزت فيه كل السلطات فى سلطة وسيادة واحدة ضمن نطاق الدولة الواحدة بدلا من الوحدات السياسية المتعددة .

ولقد هيأ هذا الجو ، ونعني به جو وحدة الدولة ، حالة من الاستقرار والأمن فى معظم أجزاء الجزيرة العربية . وكانت هذه الحالة من الاستقرار قد أدت إلى تطور اقتصادى واجتماعى فى ربوع البلاد السعودية أقنعت الفرد فى الجزيرة العربية بصلاحية نظام الدولة الموحدة وفائدته،وبالتالى ضروريته لتطوير المجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك عن طريق تطور أوضاعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وخير مثال على عملية التطور الاجتماعى والاقتصادى فى الجزيرة العربية التى كانت نتيجة لقيام الدولة السعودية الموجدة ، حركة الاخوان البدوية ، الحركة التى تم بواسطتها توظيف البدو الرحل فى هجر (قرى زراعية) وبهذا نقلت العدوى فى حالة العمل بالرعى والتجوال بقطعان الماشية والإبل فى الصحارى ، إلى العمل فى الزراعة ، وهذا بدوره أدى إلى خلق مجتمعات حضرية وأدى كذلك إلى تناقص فى المتجمعات البدوية ، وأوجـــد روابط اجتماعية واقتصادية تختلف عن الروابط الاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة قبل وجود الدولة الموحدة فى جزيرة العرب .

ولقد استطاعت الدولة الموحدة الجديدة أن تحتضن المجتمعات القبلية ، وتصهرهم فى بوتقة مجتمع الدولة ، الذى يكن ولاءاً . للحاكم ــ الملك ــ بدلا من شيوخ القبائل . ولما حاول بعض شيوخ القبائل كرؤساء الاخوان أن يستعيدوا سلطتهم التى قوضها ابن سعود بعد ثورتهم عليه ، استطاعت الدولة الموحدة أن توحد جهود القبائل ضد هؤلاء الثوار، وكانت النتيجة أن ازدادت قوة الدولة وازداد رسوخها فى عقلية السكان .

ولقد استطاعت الدولة الموحدة أن تنشر الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد السعودية ، وهذا بدوره قاد المجتمع السعودى إلى الطريق الذى يتجه به نحو حضارة الأمم المتمدينة والمتقدمة فى وقتنا الحاضر .

وهذا التطور فى مفهوم الدولة أثر فى تطور الأجهزة والمؤسسات

الحكومية التابعة لهذه الدولة . كما وأثر على الأنظمة والقوانين فى البلاد ، فأدى إلى إحداث قوانين جديدة ، وتنظيمات ولوائح تشريعية جديدة اقتضتها الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة فى البلاد .

وتعتبر وحدة الدولة ومفهومها السياسى من العوامل الهامة التى قللت من حدة النزعة القبلية بعد أن ذابت فى النزعة الوطنية ، كما وأضعفت النزعة الإقليمية ، التى كانت تسود عقلية السكان فى الأقاليم النجدية والإحسائية والحجازية والعسيرية ، وظهرت بدلا منها النزعة الوطنية ونزعة الارتباط بالدولة بدلا من الارتباط بالإقليم والقبيلة .

وبهذا أصبحت الدولة فى نظر السكان سلطة شرعية ، يجب إطاعتها والتقيد بما تفرضه عليه من قوانين ، والعمل على طاعتها خوفاً من الوقوع تحت طائلة القانون ، لأن قبضتها على زمام الأمور فى البلاد أصبحت قوية بعكس ما كانت عليه سلطات الوحدات السياسية التى كانت تحكم البلاد قبل قيام الدولة السعودية الحديثة .

تطور مفهوم الألقاب السياسية فى جزيرة العرب .

لقد تطورت مفاهيم الألقاب السياسية فى جزيرة العرب تطوراً يتناسب مع تطور الأوضاع السياسية فيها . فالعادة الشائعة فى جزيرة العرب أن يطلق لقب أمير على حاكم المدينة والبلدة فى جزيرة العرب ، وأن يطلق لقب شيخ على حاكم القبيلة . وأحياناً يطلق لقب شيخ على حكام المدن والبلدان ، وفى هذا اللقب كان يدخل أيضا لقب الأمير .

وعند قيام الوهابية بويع الحكام السعوديون بإمامة الدولة السعودية الناشئة ، وأصبح لقب الحاكم فى هذه الدولة إماماً . وهذا اللقب يحوى المفهومين الديني والسياسى ، وهو امتداد لألقاب الحكام فى الدول الاسلامية المتعاقبة

التى سبقت قيام الوهابية ، وأصبح لقباً لكل الحكام فى البلاد والأقاليم العربية التى قامت فيها حركات دينية سياسية استطاعت تسلم زمام المبادرة السياسية فيها.

والواقع أن معظم شيوخ أقاليم الجزيرة العربية وأمراءها كانوا يرغبون دائماً أن يلقبوا بلقب « حاكم » وأدلل على ما أقول فإن ابن سعود كان فى بداية حكمه يفضل أن يلقب بلقب حاكم نجد لما فى هذا اللقب من المفهوم السياسى ، وكان ينافسه فى هذا أمراء حائل من آل رشيد وكان ابن سعود لا يرغب أن يلقب بلقب أمير أو شيخ على اعتبار أن هذين اللقبين يستعملان للسلطة على مدينة أو بلدة[٣] لذا ظل ابن سعود يلقب بلقب « حاكم نجد » فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٠٢م — ١٩١٣ م ، وأن بريطانيا كانت ترى أن هذا اللقب يجب أن يكون مقتصراً على ابن سعود ، ولا يحق لحكام حائل من آل رشيد أن يلقبوا أنفسهم به[٤] . ولقد تطور لقب ابن سعود فيما بعد فأصبح يدل على معنى دينى على اعتبار أن ابن سعود هو إمام الوهابية — فيلاحظ من مراسلات ابن سعود إلى الشريف حسين بن على فى مكة أنه كان يوقع تحت لقب خادم الدولة والملة والوطن « أمير نجد ورئيس عشائرها » . ونلاحظ أنه ولغاية سنة ١٩١٥ م ظلت الدولة السعودية وظل لقب أميرها يتميزان بالصفة القبلية البدوية وبالصفة الدينية أكثر من تميزها بمفهوم سياسى وأن المسحة الدينية التى تحلت بها الدولة السعودية كانت تميزها عن غيرها من الوحدات السياسية الأخرى فى جزيرة العرب .

وبعد سنة ١٩١٥ م أخذ لقب ابن سعود يتغير تدريجياً بتغير مركزه ، واتساع رقعة أرضه ، وازدياد عشائره وبالتالى ازدياد قوته وتغير مركزه وموقفه تجاه الدول الكبيرة فى المنطقة ، كتركيا وبريطانيا . فمن وجهة النظر التركية فان الدولة العثمانية كانت قد وقعت مع ابن سعود معاهدة اعترفت به والياً على إقليمى نجد والاحساء . ومع هذا فان ابن سعود لم يستخدم هذا اللقب لأن المعاهدة التركية السعودية لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، وإنما ظلت مجرد حبر على ورق ؛ بينما نرى أن لقب ابن سعود تغير ، فأصبح يلقب بلقب

« سلطان نجد وملحقاتها » ، ونلاحظ أن لقب أمير نجد تلاشى تدريجياً . ونلاحظ كذلك أن فى لقب « سلطان » تتمثل السلطتين الدينية والسياسية . ويمكن القول إن ابن سعود لقب نفسه بهذا اللقب الجديد ليتمشى مع ظهور الحركة الإخوانية الوهابية الجديدة ، وربما فى هذا كان يرى إظهار سيادة السلطة الوطنية لتحل محل سيادة السلطة التركية والسلطان التركى . ونلاحظ كذلك أن لقب ابن سعود وتطور مفهوم الدولة أخذا يقتربان من المفهوم السياسى أكثر من المفاهيم الأخرى ، إذ فى سنة ١٩١٥م اعترفت بريطانيا بحكم ابن سعود على نجد والاحساء «وبدأت الدولة السعودية الوهابية الجديدة تخرج من عزلتها الاقليمية فى مفهومها الدبلوماسى . وظلت بريطانيا فى العشرينات من القرن العشرين الميلادى تطلق على ابن سعود لقب « حاكم نجد وملحقاته »[٥] هذا وتشير الوثائق الانجليزية أن بريطانيا أخذت تتوقع أن ابن سعود سوف يلقب نفسه « بملك نجد » ، وأنه سوف يطالبها بالاعتراف بهذا اللقب ، وسوف يطالبها بالاستقلال التام والمطلق [٦] .

لقد ظل ابن سعود يلقب نفسه بلقب « سلطان نجد وملحقاته » إلى أن دخلت القوات الوهابية الطائف ومكة والمدينة المنورة ، وبعدها تغير هذا اللقب وتغير كذلك اسم الدولة السعودية ، وذلك بعد تنازل الملك على بن الحسين عن ملكية الحجاز لابن سعود . ففى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ (٨ يناير سنة ١٩٢٦ م) تم إعلان ملكية الحجاز المضمومة إلى الحكم السعودى ، وصارت الدولة السعودية كمجتمعه يطلق عليها اسم « المملكة الحجازية والسلطنة النجدية وملحقاتها » ، وصار ابن سعود يلقب بلقب « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاته » وبعد ضم ابن سعود لمنطقة عسير والمقاطعة الأدريسية غير لقب « سلطان » بلقب « ملك » ، وصار اسم الدولة السعودية « المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها » ، ولقب ابن سعود بلقب « ملك الحجاز ونجد وملحقاته » ، وقد تم هذا الإجراء فى ٢٥ رجب ١٣٤٥هـ

(١٩ يناير ١٩٢٧ م) . وقد أبلغ هذا اللقب إلى الدول الأجنبية لتعمل على مخاطبة ابن سعود به . والجدير بالذكر أن الحكم فى الحجاز ظل فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٢٧م حتى سنة ١٩٣٢ م ، ظل حكما ذاتيا إقليميا يتبع السيادة السعودية ، وظل الحجاز منذ دخول القوات الوهابية سنة ١٩٢٧م وحتى سنة ١٩٣٢م مملكة دستورية عاصمتها مكة المكرمة ، تمت إدارتها بواسطة نائب ملك نجد ، وكان ابن سعود قد عين ابنه الأمير فيصل آنذاك نائباً عنه ليدبر شئون المملكة الحجازية(٧). ويجب هنا أن ننوه إلى أن لقب ملك كان قد دخل جزيرة العرب منذ سنة ١٩١٦ م ، حين لقب الشريف حسين نفسه بلقب « ملك الحجاز » ، ولقب مملكته « بالدولة العربية الهاشمية » .

ولما استقر الوضع السياسى لابن سعود بعد قيامه بعمليات الضم المتعددة لمعظم أقاليم شبه جزيرة العرب ، رأى بعد ذلك ضرورة القيام بعمل أقوى من أجل اتحاد دولة موحدة فى أجزائها ودستورها ، لأن فى ذلك أكثر طوعا لأوامره ، وأكثر فائدة لبلاده ، ولأنها حلا جذرياً لمشاكل الحدود التى كانت تنشأ مع الوحدات السياسية المجاورة لدولته فى جزيرة العرب وخارجها ، وكان ابن سعود يرى فى توحيد أقاليم دولته فى وحدة سياسية تغييراً للولاء التقليدى للفرد ، الذى كان دائما يخضع بولائه لقبيلته أكثر من خضوعه للوحدة السياسية ، وخضوعه للشيخ أكثر من خضوعه للحاكم ، وهذه النظرة العميقة للأمور تبين مدى إدراك ابن سعود لفوائد وحدة الأقاليم المتعددة فى دولة واحدة . فلما رأى ابن سعود أن جميع هذه العوامل تكاملت ، أصدر مرسوماً ملكياً فى ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١هـ (٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ م) يقضى بضم جميع أقاليم دولته فى وحدة سياسة أطلق عليها اسم « المملكة العربية السعودية » . وأطلق عليه لقب « ملك المملكة العربية السعودية » .

ونلاحظ فى التسمية الأخيرة للدولة السعودية ؛ « بالمملكة العربية

السعودية ، ثلاثيا واضحا للقب إمام وأمير وشيخ ، ليحل محل الجميع لقب ملك ، وهذا اللقب ذو مفهوم سياسى كامل ، بعكس لقب الإمام الذى كان يضم المفهومين السياسى والدينى . ويمكن القول إن دخول لقب ملك إلى جزيرة العرب كان بداية انفتاحها الدبلوماسى على الغرب. وبدأ مفهوم الدولة الحديثة فى الجزيرة يبتعد تدريجيا عن مفهوم السياسية القبلية أو العشائرية أو الإقليمية . ونلاحظ كذلك أن أخذ ابن سعود « بلقب ملك » ثم تغيير الدولة من « سلطنة » إلى « مملكة » تضم مفهومى الاتحاد والتطور الحديث ، كان هذا الأخذ يعنى انفتاح عقلية ابن سعود ، وتجلى هذا الانفتاح حين بدأ يأخذ بأساليب الدولة الحديثة ، والحياة المدنية العصرية . وهذا يعكس وجهة نظر ابن سعود التى كانت ترى مسايرة الأوضاع السياسية الأكثر دبلوماسية والأكثر انفتاحاً والأكثر رسوخاً فى مفهوم الحكم وهذا يرينا مدى التغيير الذى طرأ على الوهابية المنبعثة ، التى بدأت تأخذ موقفاً أكثر مسايرة وانفتاحاً ، وأقل تزمتاً ، خاصة بعد فشل ثورة الاخوان فى بداية الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادى . وبعدها أصبحت المفاهيم السياسية تأتى فى المركز الأول والأقوى فى تسيير إدارة واتجاه الدولة فى جزيرة العرب .

المراجـــع

(١) انظر : HUSIL (ALIOS), NORTHERN NEJD, p 302

(٢) انظر : Goblet (Y. M.), The Twilight OF Treahés p. 77.

(٣) انظر : F.O. 371. Vol. 3389, p. 485

(٤) انظر : F.O. 686. Vol. 24, p. 109, Secret, on 28 January, 1919.

(٥) انظر : F.O. 371. Vol. 4144, p. 120.

(٦) انظر : F.O. 371. Vol. 12244.

(٧) انظر : LIPSKY (G. A.), Saudi Arabia ,Its People, itS Society, itS Culture, p. 114.